٢

بلاد الشام على عهد المقدسيّ

اوّل ما افتتح بهِ المقدسيّ كتابهُ نظرٌ عموميّ في احوال الشام وهذه المقدّمة حسنة اجمالًا لولا انّ المؤلف افقدها شيئًا من فوائدهـا بزخرف سجعها. والاولى بمثل هذه المقدّمات العلميّة أن تُكتَب بسذاجة وكلام بعيد عن كلّ تصنُّع لئلّا يحيد الفكر عن الجوهر فينصرف الى الاعراض لاسيما اذا اتّسع الكتبة في السجع وتجاوزوا الحـدود كما فعل ابن جُبَير. فدونك ما كتب المقدسي في وصف الشام (ص ١٥١):

(اقليم الشام) جليل الشأن دار النبيّين. ومركز الصالحين. ومعدن البدلاء. ومطلب الفضلاء. بهِ القبلة الاولى. وموضع الحشر والمسرى. والارض المقدّسة والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ومهاجر ابراهيم وقبره وديار ايُّوب وبئرهُ ومحراب داؤد وبابهُ وعجائب سليمان ومدنهُ وتربة اسحاق وامّه ومولد المسيح ومهدهُ وقرية طالوت ونهرهُ ومقتـل جالوت وحصنهُ وجبُّ ارميا وحبسهُ ومسجد اوريَّا وبيتهُ وقبَّة محمّد وبابهُ وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريَّا ومعرك يحيى ومشاهد الانبياء وقرى ايُّوب ومنازل يعقوب والمسجد الاقصى وجبل زيتا ومدينـة عكا ومشهد صدّيقا وقبر موسى ومضجع ابراهيم ومقبرتهُ ومدينة عسقلان وعين سلوان. وموضع لقمان ووادي كنعان. ومدائن لوط وموضع الجنان... ثم بهِ دمشق جنّة الدنيا. وصُغَر البصرة الصغرى. والرملة البهيَّة وخبزها الحوّارى وايليا الفاضلة بلا لأوى وحمص المعروفة بالرخص وطيب الهواء. وجبل بصرى وكرومهُ فلا تُنسى وطبريَّة الجليلة بالدخل والقرى ثم البحر يمدُّ على طرفيه فالحمولات فيهِ اليهِ ابدًا وبحر الصين (١ متّصـل بطرفهِ الاقصى. لهُ سهل وجبل واغوار واشياء والبادية على تخومهِ كالزقاق منهُ الى تيماء. وبهِ معادن الرخام وعقاقير كلّ دواء. ويسَار وتجار ولباقة وفقهاء وكتّاب وصنّاع واطبّاء»

فترى من هذا الوصف انّ بلاد الشام كانت وقتئذٍ غنيَّةً بمحصولاتها مُثريةً بتجارتها تزينها المدن العامرة والدساكر الخصبة لم تزل بحسن موقعها وعظم شأنهـا على ما كانت عليهِ سابقًا (اطلب المشرق ١٠: ١٠٩) فتحفظ مقامها الخطير بين الاقطار. وكانت الشام

---

١) يقصد ببحر الصين بحر قلزم كما سترى

مشحونة بالديار الواسعة والمنازل العامرة حتى يكاد الناظر يسهو عنهـا لكثرتها. قال المقدسي (ص ١٥٥ راجع ايضاً ١٧٦):

« وفي هذا الاقليم قرًى اجلّ واكبر من اكثر مدن الجزيرة (١ مثل داريًا وبيت لهيا وكفر سلّام وكفر سابا غير انّهـا على رسوم القرى معدودة فيها وقد قلنا انّ عملنا موضوع على متعارُف »

وكان صاحب هذه الاسطر قد أَلحق بوصفهِ للشام خارطةً كما فعل بسائر الاقاليم الّا انّ هذه الخارطة لم تُنشر بالطبع فلا يسعنا الحكم عنهـا لنوجّه اليهِ الثناء او اللوم كفعلنا بالخوارط التي رسمها كتبة العرب

وبعد هذه المقدّمات ترى المقدسيّ يستقري كوَر الشام واحدةً واحدة مباشرة من جهة الشمال وهو يحصيهـا ستّة: قنسرين ثم حمص ثم دمشق ثم الاردن ثم فلسطين ثم الشراة. وهذه الكور توافق الخمسة الأَجناد التي قُسمت اليهـا بلاد الشام منذ اوّل الفتح الاسلامي. والكورة الاولى اي قنّسرين تنطبق مع ولاية حلب الحاليَّة تقريباً. لكنّنا لا نفهم كيف استطاع المقدسيّ (ص ١٥٤) أَن يُدخل فيها جوسيَّة الواقعة على مسافة ستّ ساعات جنوبيّ شرقيّ حمص. ولعلّ النسّاخ تصرّفوا بتقديم بعض الاسطر او تأخيرها فشوّشوا الترتيب. امّا كورة الاردن فكانت تشمل في جملة مدنهـا طبريَّة وقدَس وصور وعكا واللجُّون وكابل وبيسان واذرعات وذلك ما يوافق من انحائنا الحاليَّة كل متصرفيَّة عكّا وقسماً من متصرفيَّة نابلس وقائمقاميَّة صور وبعض متصرفيَّة حوران. امّا كورة الشراة فانّ المقدسيّ (ص ١٥٥) قد جعل « قصبتها صُغَر ومدنها مآب ومعان وتبوك وأَذرُح ووَيلة ومَدْيَن ». وصُغَر هذه هي المذكورة في التوراة كان موقعها جنوبيّ بحيرة لوط وقد استولى عليها الخراب منذ زمن طويل وسنعود الى ذكرها. هـذا محصّل تقسيم كوَر الشام كما كانت في القرن العاشر

وها نحن نستقري كلّ كورة لنرى ما يقول المقدسيّ فيهـا. قال عن حلب (ص ١٥٥):

« وامّا حلب فبلد نفيس خفيف حصين وفي اهلهـا ظرف ولهم يسار وعقول مبنيّ بالحجارة عامر. في وسط البلد قلعة حصينة واسعة فيها ماء وخزائن السلطان. والجامع في البلد. شربهم من نهر

١) يريد جزيرة العرب كما ارتأى بصواب المسيو دي غوي

قُوَيْق يدخل الى البلد الى دار سيف الدولة في شباك حديد والقصبة ليست بكبيرة الّا انّ بها مستقرّ السلطان لها سبعة ابواب باب حمص باب الرقّة باب قنّسرين باب اليهود باب العراق باب دار البطّيخ باب انطاكية وباب الاربعين مسدود »

وكانت انطاكية في ايّام المقدسيّ قد انحطّت عن رتبتها السابقة بعد تقدّمها على كل مدن الشام ولذلك يكتفي الكاتب بذكرها دون وصفها . وعلى خلاف ذلك حمص فانها كانت نالت نصيباً وافياً من الفخر قال المقدسيّ في تعريفها (ص ١٥٦) :

« حمص ليس بالشام بلد اكبر منها وفيها قلعة متعالية عن البلد تُرى من خارج اكثر شرجهم من ماء المطر ولهم ايضاً نهر ولما فتحها المسلمون عمدوا الى الكنيسة فجعلوا نصفها جامعاً . عنده بالسوق قبّة على راسها شبه رجل من نحاس واقف على سمكة تديرها الارياح الاربع وفيه اقاويل لا تصحّ والبلد شديد الاختلال متداعٍ الى الخراب »

ويلوح من قول المقدسيّ (ص ١٥٦) ان تدمر كانت بعد في عهده على حالةٍ من العمران « قريبة من البادية رحبة طيّبة » . وهاك وصف دمشق قال (ص ١٥٦ و١٥٧) :

« دمشق هي مصر (١ الشام ودار الملك ايام بني اميّة وثمّ قصورهم وآثارهم . بنيانهم خشب وطين وعليها حصن أُحدث وانا بهِ من طين اكثر اسواقها مغطّاة . ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن وهو بلد قد خرقتهُ الانهار . واحدقت بهِ الاشجار . وكثرت بهِ الثمار . مع رخص اسعار . وثلج واضداد لا ترى احسن من حماماتها ولا اعجب من فوّاراتها ولا احزم من اهلها . الذي عرفتهُ من دروبها باب الجابية باب الصغير باب الكبير باب الشرقي باب توما باب النهر باب الجابيين . وهي طيّبة جدًّا . غير انّ في هوائها يبوسة واهلها غاغة وثمارها تفهة ولحومها عاسية ومنازلها ضيّقة وازقّتها غامّة واخبازها ردية والمعايش بها ضيّقة تكون نحو نصف فرسخ في مثلهِ في مستوى »

ثم يُردف المقدسيّ كلامهُ بوصف الجامع الاموي الشهير المعدود كاحدى عجائب الدنيا . ووصفهُ اقدم ما ورد الينا في ذلك البناء العظيم ولولا طولهُ لاثبتناهُ هنا وهو يعرّفنا بمحاسن ذلك العمل الجليل ورونقهِ البهيّ قبل أن يُصاب ثلاثاً بمصاب الحريق ونحن نكتفي بذكر رواية نقلها المؤلف عن نفسهِ حيث قال (ص ١٥٩) :

« قلتُ يوماً لعمّي : يا عمّ لم يحسن الوليد (٢ حيث انفق اموال المسلمين على جامع دمشق ولو

---

١) يريد بالمصر هنا المدينة الكبيرة والحاضرة . كما يقال عن الكوفة والبصرة انهما مصرا العراق او العراقان »

٢) هو الوليد بن عبد الملك

اصرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورمّ الحصون لكان أصوب وافضل. قال: لا تغفل بنيّ انّ الوليد وُفّق وكُشف لهُ عن امر جليل وذلك انهُ رأى الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعاً حسنة قد أفنن زخارفها وانتشر ذكرها كالقمامة وبيعة لُدّ والرها فاتّخذ للمسلمين مسجداً اشغلهم بهِ عنهنّ وجعلهُ احد عجائب الدنيا ألا ترى انّ عبد الملك لما رأى عظم قبّة القمامة وهيئتها خشي ان تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبّة على ما ترى »

وهو قول جليل يدلُّ على ما بلغهُ فنّ البناء والهندسة في بلاد الشام بين اهل الذمة

اما المدن الساحليّة فانها على ما يظهر كانت قليلة الشان بالنسبة الى حمص ودمشق فانّ المقدسيّ لا يكاد يزيد على ذكر اسمائها حيث قال (ص ١٦٠): « صيداء وبيروت مدينتان على الساحل حصينتان وكذلك طرابلس الّا انها اجلّ ». بخلاف بانياس فانها كانت في ذلك العهد مدينة عامرة واسعة الثروة بما يأتيها من غلال كورة الحُولة التي يدعوها المؤلف « معدن الاقطان ». قال (ص ١٦٠):

« ومدينة بانياس على طرف الحولة وحدّ الجبل ارخى وارفق من دمشق واليها انتقل اكثر اهل الثغور لمّا أُخذت طرسوس وزادوا فيها وهي كل يوم في زيادة لهم نهر شديد البرودة يخرج من تحت جبل الثلج وينبع وسط المدينة وهي خزانة دمشق رفقة باهلها بين رساتيق جليلة غير انّ ماءها رديّ »

ومن المدن التي افاض المؤلف في وصفها طبريّة وكانت اذ ذاك اعظم خطراً منها اليوم مع انطباق وصفها اجمالاً مع وضعها الحاليّ. قال (ص ١٦١):

« طبريّة قصبة الاردن وبلد وادي كنعان موضوعة بين الجبل والبحيرة وهي ضيّقة كربة في الصيف مؤذية. طولها نحو من فرسخ بلا عرض وسوقها من الدرب الى الدرب والمقابر على الجبل. بها ثماني حمّامات بلا وقيد ومياض عدّة حارّة الماء والجامع في السوق كبير حسن قد فُرش ارضهُ بالحصى على اساطين حجارة موصولة. ويقال « اهل طبريّة شهرين يرقصون وشهرين يقمقمون وشهرين يثاقفون وشهرين عُراة وشهرين يزمّرون وشهرين يخوضون ». يعني يرقصون من كثرة البراغيث ويلوكون النبق ويطردون الزنابير عن اللحم والفواكه بالمذابّ وعراة من شدّة الحرّ ويصُون قصب السكّر ويخوضون الوحل. واسفل البحيرة جسر عظيم عليهِ طريق دمشق وشرجهم منها عليها بما يدور قرى نخيل والسفن فيها تذهب وتجيء وماء الحمامات والدواميس اليها لا يستطيبها الغرباء كثيرة الاسماك خفيفة الماء والجبل مطلّ على البلد شاهق »

والجسر الذي يذكرهُ الكاتب ليس هو على ما نظن جسر الجامع الذي يُرى

اليوم جنوبًا بل يريد جسرًا آخر خربًا تُرى بقاياهُ عند مخرج الاردن من بحيرة طبريَّة. وكان اكبر من جسر المجامع واقرب من طبريَّة. ويتَّضح من وصفهِ ايضًا ان الطريق من دمشق الى طبريَّة كانت تقطع ذلك الجسر مارَّة بأفيق سواء. وبينهما بريد واحد (ص ١٩٠) وهكذا كانت تسهل المواصلات مع طبريَّة دون عطفة جسر المجامع. وهذا ما يحملنا على مخالفة رأي المسيو دي غوي الذي ارتأى انَّ الجسر المذكور هو جسر المجامع (ص ١٦١ في الحاشيـة h). ويؤخذ ايضًا من كلام المقدسيّ انَّ ملاحة بحيرة طبريَّة كانت ذات بال وانَّ الكورة كانت في نموّ وعمران. امَّا اليوم فلا تكاد ترى على بحيرة طبريَّة سوى قوارب قليلة. والامل معقود بان سكَّة الحديد الحميـديَّة سوف تعيد قريبًا الى هذه المحالّ حركتها السابقة وتقدُّمها

ثم اتبع المؤلف وصفهُ بذكر بلاد فلسطين وقد قدَّمنا فويق هـذا تعريف عكَّا وميناها الخطير المشابه بحسنهِ مينا صور الذي وصفهُ بما يلي (ص ١٦٣):

« وصور مدينة حصينة على البحر بل فيهِ يُدخَل اليهـا من باب واحد على جسر واحد قد احاط البحر بها ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا ارض تدخل فيهِ المراكب كل ليلة ثم تجرّ السلسلة التي ذكرها محمَّد بن الحسن في كتاب الاكراه ولهم ماء يدخل في قناة معلَّقـة وهي مدينة جليلة نفيسة بها صنائع ولهم خصائص وبين عكا وصور شبه خليج ولذلك يقال « عكا حذاء صور الَّا انك تدور » يعني حول الماء »

ولم يكن المؤلف لينسى وطنهُ بيت المقدس فافرد لهُ وصفًا مطوَّلًا يستشفُّ من ورائهِ حبّ الكاتب لمسقط رأسهِ. واورشليم كانت اذ ذاك كما هي اليوم مدينة معتبرة ولذلك احببنا ان ننقل قسمًا من كلامهِ. وليس شاهد ادلّ على فضل المقدسيّ من هذه المنقولات التي نثبتها في كلامنا مع حُسن بيانها لاحوال الشام في عصره. قال بعد ذكره للرملة قصبة بلاد فلسطين (١٦٥—١٦٧):

« بيت المقدس ليس في مدائن الكُوَر اكبر منها وقصبات كثيرة اصغر منها كاصطخر وقاين والفرما لا شديدة البرد وليس بها حرّ وقلَّ ما يقع بها ثلج. وسألني القاضي ابو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلتُ: سجسجٌ لا حرّ ولا برد شديد. قال: هذا صفة الجنَّة. بنيانهم حجر لا ترى احسن منهُ ولا اتقن من بنائها ولا اعفّ من اهلها ولا اطيب من العيش بها ولا انظف من اسواقها ولا اكبر من مسجدها ولا اكثر من مشاهدها. عنبها خطير. وليس لمعتّقها نظير. وفيها كلّ حاذق وطبيب. واليها قلبُ كل لبيب. ولا تخلو كل يوم من غريب. وكنت يومًا في

مجلس القاضي المختار ابي يحيى ابن جهام بالبصرة فجرى ذكر مصر الى ان سئلتُ: اي بلدٍ اجلّ قلت: بلدنا. قيل: فأيُّها اطيب. قلت: بلدنا. قيل: فأيُّها افضل. قلت: بلدنا. قيل: فأيُّها احسن. قلت: بلدنا. قيل: فأيُّها اكثر خيرات. قلت: بلدنا. قيل. فأيُّها اكبر. قلت بلدنا. فتعجب اهل المجلس من ذلك وقيل: انت رجل محصّل وقد ادّعيت ما لا يُقبَل منك وما مثالك الّا كصاحب الناقة مع الحجّاج. قلتُ: امّا قولي «اجلّ» فلانها بلدة جمعت الدنيا والآخرة فمن كان من ابناء الدنيا واراد الآخرة وجد سوقها. ومن كان من ابناء الآخرة قدعتهُ نفسهُ الى نعمة الدنيا وجدها. واما طيب الهواء فانهُ لا سمَّ لبردها ولا اذى لحرّها. واما الحُسْن فلا ترى احسن من بنيانها ولا انظف منها ولا انزه من مسجدها. اما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الاغوار والسهل والجبال والاشياء المتضادّة كالاترجّ واللوز والرطب والجوز والتين والموز. واما الفضل فلانّها عرَصة القيامة ومنها المحشر واليها المنشر. . . فتحوي الفضل كلهُ. واما الكبر فالخلائق كلّهم يُحشَرون اليها فايّ ارضٍ اوسع منها. فاستحسنوا ذلك واقرُّوا بهِ »

ويلي فلسطين ذكر الكورة السادسة وهي كورة الشراة دُعيت بذلك باسم جبل الشراة الذي يمرُّ بها. وقد سبق لنا في احد اعداد المشرق الاخيرة (١٠: ٥٧٧) ما اكتشفهُ في تلك الجهات الدكتور لويس موسيل. وها نحن نثبت هنا نتفًا ممَّا جاء في تاليف المقدسيّ عن بعض بلدانها. قال في وصف صُغَر التي اشرنا آنفًا الى موقعها جنوبي بحيرة لوط في موقع تنيف حرارتهُ على لظى كل البلاد (ص ١٧٨):

« صُغَر اهل الكورتين يسمُّونها صقَر. وكتب مقدسي (١ الى اهلهِ: من صقَر السفلى الى الفردوس الاعلى. وذلك انهُ بلد قاتل الغرباء رديء الماء ومن ابطأ عليهِ ملك الموت فليرحل اليها. ولا اعرف في الاسلام لها نظيرًا في هذا الباب ولقد رأينا بلدانًا وبيئة ولكن ليس كهذه اهلها سودان غلاظ وماؤها حميم وكانها جحيم الّا انها البصرة الصغرى والمتجر المُربح وهي على البحيرة المقلوبة وبقيَّة مدائن لوط وانّما نجت لانَّ اهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة والجبال منها قريبة »

ودونك ما كتب عن مآب (ص ١٧٧):

« مآب في الجبل كثيرة القرى واللوز والاعناب قريبة من البادية ومؤتةُ من قراها وثَمَّ قبر جعفر الطيّار »

ومؤتة المذكورة هنا موقعها معروف على بُعد نحو اربع ساعات جنوبيّ الكرك. وهذا دليل على موقع مآب لكنهُ غير كافٍ للحكم البات في ذلك كما سبق لنا القول في المشرق (١٠: ٥٨٠). امّا الكرك فانَّ المقدسيّ لم يروِ اسمها ولا دفعة واحدة

١) اي رجل من بيت المقدس ليس هو المؤلف

بخلاف مآب التي يكرّر اسمها ويعدّها كمكان ذي شأن. وما ادرانا انَّ الكرك نفسها كانت تسمَّى مآب كما يُشعر بذلك اسمها اليوناني القديم فان البوزنطيين كانوا يسمُّونها كركموبا (Χαράκμωβα)

وليست مآب وحدها التي باد اثرها في تلك الناحية التي كانت بعدُ عامرةً في أيام المقدسيّ. وممَّا ذكرهُ أذرُح الشهيرة بمعسكرها الرومانيّ وفيها جرت حكومة الحكَمَين من اعظم حوادث الدولة الاموية (١. وبقيت أذرح في مقامها الصالح الى القرن الثاني عشر وهي اليوم خراب وقد زرنا بقاياها في شهر آب من السنة ١٩٠٥ عند رجوعنا من وادي موسى ومدينة پترا التي كان الخراب استولى عليها قبل عهد المؤلف بزمن طويل فلم يتعرَّض لذكرها

*

قد تبعنا المقدسيّ في تعريفهِ لاعظم مدن الشام الباقية في زمنهِ طبقًا لاوصافها الطبيعيَّة وتقاسيمها النظاميَّة. ولا نشكّ انَّ القارئ قدّر الكاتب قدرهُ بما نقلنا من نصوصهِ المتعدّدة. وهي كما ترى كافية لتجعل لهُ مقامًا ممتازًا بين ارباب رسوم البلدان. الَّا انَّ للمقدسيّ فضلًا آخر بما الحقهُ بهذا القسم وهو فصلٌ علميّ دعاهُ «بجمل شؤون هذا الاقليم» واودعهُ عدَّة ملحوظات لتعريف جغرافيَّة الشام الطبيعيَّة والاقتصاديَّة والنسبيَّة وفي هذا الفصل ايضًا معلومات اخرى في العادات والنقود والاوزان والمكاييل ومال الخراج على مقتضى عادة كل كورة. وعندنا انَّ المؤلف يظهر في هذا الفصل من المزايا الفنيَّة وحسن النظر الجغرافيّ الذي يرقّي مقامهُ بين الكتبة ولهُ من الملحوظات ما لو كُتب في زماننا لنال بسببهِ الكاتب ثناء. وهو القسم الذي لاجلهِ يطرئ المستشرقون عمل المقدسيّ ويعظمونهُ (٢. فمن ذلك ما روينا عنهُ في تقاسيم بلاد الشام ما يشهد لهُ بثقوب العقل ودقَّة النظر (٣

---

١) راجع مقالاتنا في اخبار الخليفة معاوية (Etudes sur le Calife Mo'awia)

٢) اطلب تاريخ الاداب الشرقية لفون كريمر Von Kremer: *Culturgeschichte* II, 429-433)

٣) وقد نقل مع هذا روايات ضعيفة ومزاعم غريبة لمجدها في غيره من الكتبة كابن الفقيه

والكاتب يفتتح كلامهُ بوصف احوال الجوّ في بلاد الشام كما كان حقيقاً بهِ قال (ص ١٧٩):

«هو اقليم متوسّط الهواء الّا وسطهُ من الشراة الى الحولة فانهُ بلد الحرّ والنيل والموز والنخيل وقال لي يوماً غسّان الحكيم ونحن باريحا: ترى هـذا الوادي. قلتُ: بلى. قال: هو يمتدُّ الى الحجاز ثم يخرج الى اليمامة ثم الى عُمان وهجَر ثم الى البصرة ثم الى بغـداد ثم يصعد الى ميسرة الموصل الى الرقّة وهو وادي الحرّ والنخيل واشدّ هذا الاقليم برداً بعلبكّ وما حولها. ومن امثالهم قيل للبرد: ابن نطلبك. قال: بالبلقاء. قال: فان لم نجدك. قال: بعلبكّ بيتي: وهو اقليم مبارك بلد الرخص والفواكه والصالحين. وكلما علا منهُ نحو الروم كان اكثر انهاراً وثماراً وابرد هواء وما سفل منهُ فانهُ افضل واطيب والذّ ثماراً واكثر نخيلاً ليس فيهِ (١ نهرٌ يسافَر فيهِ»

وهذا القول الاخير غاية في الصواب فان المقدسيّ لم يكن ليصادق على مذهب اسطرابون ومن حذا حذوهُ بانَّ العاصي يمكن ركوبهُ على الاقل من انطاكية. وهو زعم لا صحّة لهُ حتى مع حصر الكلام وتخصيصهِ بهذا القسم الصغير فانّنا قد تحقّقنا بنفسنا الامر اذ سرنا في وادي العاصي من انطاكية فوجدناهُ لا يصلح لمرور القوارب

ومن الظواهر الجويّة التي ذكرها المقدسيّ الندى في انحاء الشام وخصوصاً في بعض جهات فلسطين فقال (ص١٨٦): «ينزل على فلسطين في كلّ ليلة الندى في الصيف اذا هبّت الجنوب حتى يجري منهُ مزاريب المسجد الاقصى». وممّا رأيناه بالعيان أنّنا بتنا في دنبان بين الكرك ومادبا في شهر آب سنة ١٩٠٥ تحت ظل السماء فلمّا قمنا صباحاً شعرنا بالندى قد بلّل اغطيتنا حتى امكنّا عصرها لو شئنا. ومثل هذا الندى يسقط في الناصرة من عمـل الجليل وفي بزيزا في ناحية الكورة (لبنان). ووفرة الندى كما هو معلوم من البركات التي يستدرُّها الناس من السماء ويعد بها الكتاب الكريم كالغيث والمطر

وقد اعقب المقدسيّ ذكر الظواهر الجويّة بوصف التجارات اي الغلات الصـادرة من الشام. وفي تعدادهِ دليل واضح على تقـدُّم التجارة والصناعة في ذلك العهد كما يشهد على كثرة تلك الصادرات وثمنها (٢. وها نحن نورد كلامهُ لفائدتهِ (ص ١٨٠ــ ١٨١):

ومعظم عدد الجغرافيين من ذلك قولهُ (ص ١٢٤): «سُئل ابن العبّاس عن الجزر والمدّ قال: ملاك موكّل بقاموس البحر اذا وضع رجلهُ فاض فاذا رفع رجلهُ غاص الماء»

١) اي في اقليم الشام

٢) راجع في المشرق (٩: ٩١٩) مقالتنا في تجارة سواحل سوريّة

« والتجارات بهِ (اي الشام) مفيدة يرتفع من الفلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط. ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوريّ غاية والتفّاح وقضم قريش الذي لا نظير لهُ والمرايا وقدور القناديل والإبَر. ومن اريحا نيل غاية. ومن صُغَر وبيسان النيل والتُمور. ومن عمّان الحبوب والخرفان والعسل. ومن طبريّة شقاق المطارح والكاغد وبزّ. ومن قدَس الثياب المنيّرة والبلمسيّة والحبال. ومن صور السكّر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات. ومن مآب قلوب اللوز. ومن بيسان الرزّ. ومن دمشق المعصور والبلميسيّ وديباج ودهن بنفسج دون والصفريّات والكاغد والجوز والقطين والزبيب. ومن حلب القطن والثياب والاشنان والمغرة. ومن بعلبك الملابن. ولا نظير لقطين وزيت الاتفاق وحوّارى وميازر الرملة ولا لمنّقة وقضم قريش وعينونيّ ودوريّ وترياق وترذوغ وسُبَح بيت المقدس. واعلم انهُ قد اجتمع بكورة فلسطين اربعة وثلاثون شيئاً لا يجتمع في غيرها. فالسبع الاولى لا توجد الّا بها والسبع الثانية غريبة في غيرها والاثنان والعشرون لا تجتمع الّا بها وقد يجتمع اكثرها في غيرهـا مثل: قضم قريش والمنّقة والعينونيّ والدوريّ وانجاص الكافوريّ وتين السابعيّ والدمشقيّ والقلقاس والجمّيز والخرنوب والمكّوب والعنّاب وقصب السكّر والتفـاح الشاميّ والرُطَب والزيتون والاترجّ والنيل والراسن والنـارنج واللُفّاح والنبق والجوز واللوز والهليون والموز والسماق والكرنب والكماة والترمس والطريّ والثلج ولبن الجواميس والشهـد وعنب العاصمي والتين التمريّ »

وكذلك عدَّد المعـادن الشاميّة وتعدادهُ مهمٌ لشؤون الصناعة في زمانهِ. قال (ص ١٨٤):

« بهِ (اي اقليم الشام) معادن حديد في جبال بيروت وبحاب مغرة جيّدة وبعمّان دوخا وبهِ جبال حُمَر يسمّى تراجها الصمغة وهو تراب رخو وجبال بيض تسمّى الحوّارة فيهِ ادنى صلابة يبيّض بهِ السقوف ويطيّن بهِ السطوح وبفلسطين مقاطع حجارة بيض ومعدن للرخام ببيت جبريل وبالاغوار معادن كبريت وغيره. ويرتفع من البحيرة المقلوبة ملح منثور وخير العسل ما رعى السعتر بايليا وجبل عاملة واجود المُري ما عُمل باريحا »

وهذا التعداد يدلُّ كما ترى على فقر بلاد الشام بالمعادن كما اشرنا اليهِ غير مرّة (١

وللمقدسيّ اسطر قليلة كتبها في مجاري المياه والعيون في بلاد الشام تفيد معرفتها محبّي الاسفار قال (ص ١٨٤):

« ومياه هذا الاقليم جيّدة الّا ماء بانياس فانهُ يُطلق وماء صور بحصر وماء بيسان ثقيل وماء الرملة مريّ وماء نابلس خشن وفي ماء دمشق وايليا ادنى خشونة وفي الهواء ادنى يبوسة »

ولم يسهُ المؤلف عن ذكر حمّامات طبريّة المعدنيّة وحمّامات الحمّة (٢ قال (ص١٨٥):

---

١) اطلب في كتابنا تسريح الابصار (٢ : ٢٠٧) مقالتنا في معادن لبنان

٢) في وادي اليرموك

« وبطبريّة عين تغلي تمدّ اكثر حمّامات البلد وقد شُقّ الى كل حمّام منها نهر فبخارهُ يحمّي البيوت فلا يحتاج الى وقيد وفي البيت الاول ماء بارد يمزج مقدار ما يتطهّرون بهِ ويطهرهم من ذلك الماء وفي هذه الكورة ماء مسخّن يسمّى الحمّة حارّ من اغتسل فيهِ ثلاثة ايّام ثم اغتسل في ماء آخر بارد وبهِ جرَب او قروح او ناسور او اي علّة تكون برأ باذن الله »

ومن غريب ما رواهُ (ص ١٨٤) في مجاري الانهار قولهُ عن بردَى عند خروجهِ من دمشق فزعم « انهُ ينقسم قسمين بعض يتبحّر نحو البادية وبعض ينحدر فيلقى نهر الاردن » وبديهيّ انّ نهر بردى ليس هو مطلقاً من سواعد الاردنّ . ومن مزاعمهِ ايضاً (ص ١٨٤) انّ في بحيرة لوط جبالاً . وهو رأي تفرّد بهِ المقدسيّ ولا اصل لهُ وكذلك يسمّي بحر القلزم « بحر الصين » ويطلق الاسم عينهُ على خليج العجم . وفي قولهِ دليل على اتساع تجارة الصين في زمانهِ وشيوعها في مدن بحر القلزم الساحليّة . امّا الجبال فقد وصفها المقدسي وصفاً خفيفاً غير وافٍ بالمرام . وممّا قال في لبنان (ص ١٨٨) انهُ « كثير الاشجار والثمار المباحة » ثم ذكر عبّادهُ . ويلوح من قولهِ فيهِ انّ جنوب هذا الجبل لم يكن مأهولاً على عهدهِ

فيرى القرّاء من هذه التفاصيل سبب اعجاب المستشرقين بتأليف المقدسيّ فيا ليتهُ كان وجد لهُ اخلافاً مثلهُ ذوي عقل ثاقب يفقهون الابحاث الجغرافيّة فكان هذا العلم اصاب ترقيًا عظيماً الّا انّ اغلب الكتبة الذين جاؤوا بعدهُ كانوا دونهُ اللهمّ الّا الشريف الادريسيّ

وممّا استفادهُ القارئ ايضاً من هذا البحث كما نظنّ انهُ يرى ما طرأ على بلاد الشام من التقلّبات واختلاف الاحوال في اطوار التاريخ فمنها ما يزيد وينمو ومنها ما ينقص ويتقهقر على حسب كوارث الدهر . وهذا يلوح من درس كل الكتبة الجغرافيين من العرب فانّهم وان لم يبلغوا شأو المقدسي الّا انّهم تركوا لنا معلومات ثمينة تؤدّي بنا الى معرفة بلادنا في قرون شتى مع ما جرى فيها من الماجريات في نظامها وتقاسيمها وتجارتها وبقيّة امورها ممّا يستفيد منهُ المؤرخ لاستطلاع احوال البلاد وادراك الحوادث الجارية فيها جيلاً بعد آخر